ابن كثير الدمشقي

حافظاً ومفسراً ومؤرخاً

(٧٠١ - ٧٧٤هـ/١٣٠٢ - ١٣٧٣م)

ازدانت دمشق العريقة بأنها كانت وما زالت قمة العطاء الحضاري الإنساني والثقافي والعلمي المتعدد الجوانب والآفاق والموضوعات، وظلت مصدر العلوم الإسلامية والعربية الحافلة بإنجاب أعلام الفكر والعلم، ورفدت هذه العلوم بمصنفات ومؤلفات فريدة، وجديدة، وبارعة في محتواها، ودلالتها وخصوبتها، مما بوأها مجداً سامقاً، ومكانة عالية، وبقيت كتب أعلامها مرجعاً أساسياً، ومنهلاً عذباً فيّاضاً بالمعارف المبتكرة والمآثر الحيوية، وهذا ما يعترف به في كل عصر أئمة العلم، في المشرق والمغرب، وفي دنيا العرب والإسلام، وفي طليعتها مصر الكنانة بأزهرها وجامعاتها.

وحقَّ لدمشق حينئذ أن تكون عاصمة الثقافة العربية في عام ٢٠٠٨م امتداداً لقرون طويلة بدأت في عصر الدولة الأموية القوية المشهورة بالفتوحات والانتصارات الرائعة، حيث كانت عاصمة لتلك الدولة التي أعقبت الخلافة الراشدة في المدينة المنورة، وامتازت دمشق بجاذبيتها

وجمالها، وبأن الله حماها وبارك فيها وفي أهلها في القرآن الكريم في خمس آيات، منها مطلع سورة الإسراء، والآية (١٣٧) من سورة الأعراف، والآية (٧١) من سورة الأنبياء، والآية (١١٣) من سورة الصافات. ولم أجد بلداً تغنّى الشعراء بها وتفنَّنوا في بيان محاسنها مثل دمشق، كما يدل عليه برنامج «دمشقيات» الذي أذيع في القناة الفضائية السورية الأولى بدمشق، بمناسبة كون دمشق عاصمة الثقافة العربية، لعام ٢٠٠٨م.

وتميَّز علماء دمشق وأعلامها بأنهم القدوة والمنبر فيما صنفوه، والتزموا به عملاً بنّاء وصادقاً وشاملاً مباني الإسلام وعطاءه الشريف، في مختلف آفاق العلوم الإسلامية والعربية.

وأذكر أنموذجاً فذّاً وشخصية متكاملة متعددة الاختصاص ألا وهي شخصية العلامة إسماعيل بن كثير بن ضوّ بن درع القرشي البصروي، ثم الدمشقي حياة ووفاة، أبو الفداء، عماد الدين، الذي حفظ القرآن الكريم في سن الحادية عشرة، فهو حافظ القرآن، وحافظ الحديث النبوي، وهو الفقيه والأصولي الشافعي، والمفسر للقرآن، والأديب المتقن لعلوم اللغة العربية، والمؤرخ الحجة والثقة، عاش في العصر المملوكي حيث كانت بلاد الشام موحدة مع مصر، تحت حكم المماليك.

ولد في قرية هي «مِجدَل القريَّة» من أعمال بصرى الشام، وانتقل مع أبيه إلى دمشق وهو ابن خمس سنوات سنة ٧٠٦هـ، ورحل في طلب العلم، وتوفي في دمشق. وتتلمذ على كبار علماء عصره كابن قاضي شُبهة (ت ٧٢٦هـ) وشيخ الإسلام ابن تيمية (٧٢٨هـ) الذي حظي بهذا اللقب بعد وفاته، وبرهان الدين الفزاري (ابن الفركاح) (٧٢٩هـ) والحافظ المِزّي (٧٤٢هـ) وشيخ المحدثين ومؤرخ الإسلام شمس الدين الذهبي (٧٤٨هـ) وشمس الدين الأصفهاني الأصولي (٧٤٩هـ).

وأثنى عليه هؤلاء الأعلام وغيرهم، فقال عنه الذهبي: «الإمام الفقيه، المحدث، الأوحد، البارع، عماد الدين، فقيه متقن، ومحدث متفنِّن، ومفسِّر نقّاد، وله تصانيف مفيدة»(١).

وقال عنه العلامة بدر الدين العيني شارح البخاري: «كان قدوة العلماء والحفاظ، وعمدة أهل المعاني والألفاظ.. له اطلاع عظيم في الحديث والتفسير والتاريخ، واشتهر بالضبط والتحرير»(٢).

وأكد هذا الإمام الشوكاني بقوله: «وبرع في الفقه والتفسير والنحو»(٣).

وكذلك ابن تغري بردي الحنفي بقوله: «وكان له اطلاع عظيم في الحديث والتفسير والفقه والعربية وغير ذلك»(٤).

وكان ابن كثير أحد أعلام تدريس القرآن الكريم وتفسيره والفقه الشافعي في الجامع الأموي بدمشق، وتولى بعد الذهبي مشيخة مدرسة أم الصالح (المدرسة الصالحية بدمشق) ومشيخة دار الحديث الأشرفية الجوَّانية في وسط دمشق مدة يسيرة، ومشيخة التنكيزية (دار القرآن والحديث) شرقي حمام نور الدين الشهيد بعد الذهبي، وكان أعلم العلماء بالحديث في زمانه، وكان يمارس الفتوى على المذهب الشافعي، قال عنه شيخه الذهبي: «درَّس الفقه وأفتى» وأصبح بهذا كله في مكان الصدارة العلمية بل وفي القضاء، علماً بأنه كان من العلماء العُزَّاب.

---

(١) شذرات الذهب لابن العماد الحنبلي: ٦/ ٢٣٨، تذكرة الحفاظ للذهبي: ٤/ ١٥٠٨، الدرر الكامنة لابن حجر العسقلاني: ١/ ٤٠٠، ذيل تذكرة الحفاظ للحافظ أبي المحاسن الحسيني: ص ٥٨.

(٢) المنهل الصافي: ٢/ ٤١٥ لابن تغري بردي الأتاسي الظاهري.

(٣) البدر الطالع: ١/ ١٥٣ للشوكاني.

(٤) المنهل الصافي: ٢/ ٤١٥.

ولابن كثير تصانيف كثيرة زهاء عشرين في التفسير والحديث والعقيدة والفقه والتاريخ والسيرة النبوية، وهي ذات أثر في الحياة العلمية الدائمة، أفاده فيها ذاكرته القوية، وحافظته المتميزة، وحفظه متون العلم كمختصر ابن الحاجب في أصول الفقه، وكتاب التنبيه في الفقه الشافعي، ونباهته واستحضاره مسائل العلوم، وفهمه الدقيق، والتزامه السنة النبوية، وحملته كابن تيمية شيخه على البدع والخرافات، واستقامته وأخلاقه العالية، ومواقفه من الأحداث الجارية، وملازمته الدعوة إلى الله تعالى بالاعتدال، وملازمة العدل والإنصاف والحق مهما ناله بسبب ذلك من أذى، ودعوته القوية إلى العمل بالقرآن والسنة النبوية، واتباع السلف الصالح، من أهمها وأشهرها كتاب فضائل القرآن، وتفسير القرآن العظيم، واختصار كتاب «علوم الحديث» لابن الصلاح (ت ٦٤٣هـ) المعروف بمقدمة ابن الصلاح، واشتهر الكتاب باسم «الباعث الحثيث شرح اختصار علوم الحديث» والبداية والنهاية، وسأتحدث عن ثلاثة كتب فقط مبيناً منهجها ومحتوياتها، وأهميتها وقيمتها العلمية.

ابن كثير المفسر

من أشهر كتبه كتاب «تفسير القرآن العظيم».

طبع هذا الكتاب عدة طبعات في القاهرة ودمشق وبيروت، ولا تكاد تخلو منه مكتبة أي عالم في عصرنا، ودليل تميزه تلقي الأمة له بالقبول. وهو من كتب التفسير بالمأثور، ويشبه كتاب تفسير محمد بن جرير الطبري شيخ المفسرين والمؤرخين وهو باسم «جامع البيان في تفسير القرآن» مع الإقلال الواضح من الروايات الكثيرة المأثورة في تفسير الكلمة أو الجملة.

وهو أيضاً من مطوَّلات التفاسير حيث فسَّر الفاتحة في ثلاثين صفحة من القطع الكبير مثالاً على التطويل، وهو مطبوع في دار إحياء الكتب

العربية - عيسى البابي الحلبي وشركاه بالقاهرة، في أربع مجلدات، قدَّم له ابن كثير بمقدمة رائعة ومبدعة، فقال فيها: الحمد لله الذي افتتح كتابه بالحمد، فقال: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ في بدء الفاتحة، وافتتح خَلقه (خلق المخلوقات) بالحمد فقال في مطلع سورة الأنعام: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ واختتمه بالحمد فقال في خاتمة سورة الزُّمر بعدما ذكر مآل أهل الجنة ومآل أهل النار: ﴿وَتَرَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ مِنْ حَوْلِ ٱلْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ ۚ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَقِيلَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ فهو سبحانه المحمود في ذلك كله.

والحمد لله الذي أرسل رسله ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ ۚ﴾ [النساء: ٤/ ١٦٥] وختمهم بالنبي الأُمِّي العربي المكي الهادي لأوضح السبل، أرسله إلى جميع خلقه من الإنس والجن من لدن بعثته إلى قيام الساعة، كما قال تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الأعراف: ٧/ ١٥٨] فمن بلغه هذا القرآن من عرب وعجم، وأسود وأحمر، وإنس وجان، فهو نذير له، ولهذا قال تعالى: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ مِنَ ٱلْأَحْزَابِ فَٱلنَّارُ مَوْعِدُهُۥ ۚ﴾ [هود: ١١/ ١٧]. فالواجب على العلماء الكشف عن معاني كلام الله وتفسير ذلك وطلبه من مظانه وتعلّم ذلك وتعليمه.

ثم يذكر فضل كل سورة، فسورة الفاتحة أعظم سورة في القرآن، موضحاً تلك الفضيلة بالأحاديث النبوية الصحيحة، وأن الفاتحة من أكبر أركان الصلاة، والقراءة في الصلاة تفتتح بالاستعاذة: «أعوذ بالله من الشيطان الرجيم». وتكون الاستعاذة قبل التلاوة لدفع وسوسة الشيطان، لقوله تعالى: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ﴾ [النحل: ١٦/ ٩٨] وأبان ابن كثير أحكام الاستعاذة وأنها مستحبة في رأي جمهور العلماء[1]،

(١) تفسير ابن كثير: ١/ ١٢ - ١٦.

ثم أوضح حكم البسملة: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ وأنها آية من الفاتحة، وآية من كل سورة في رأي عبد الله بن المبارك والشافعي وأحمد بن حنبل في رواية عنه، وإسحاق بن راهويه، وأبي عبيد القاسم بن سلام رحمهم الله، خلافاً للإمامين مالك وأبي حنيفة وأصحابهما. وأنه يجهر بها في الصلاة الجهرية في مذهب الشافعي رحمه الله، وهو مذهب طوائف من الصحابة والتابعين وأئمة المسلمين سلفاً وخلفاً، ثم أطال في بيان فضل البسملة[١].

وأما البيان اللغوي للمفردات والجمل والتراكيب فهو في غاية الإحكام والوضوح وسلامة الاختيار في تحديد المراد، مع العناية باشتقاق الكلمة ومعانيها، وإيراد الأدلة على المقصود الصحيح من كلام العرب والشعراء وأئمة اللغة والنحو، وكلام أعلام المفسرين في المراد، فيقول مثلاً في بيان معنى كلمة «الله»[٢]: علَم على الرب تبارك وتعالى، يقال: إنه الاسم الأعظم لأنه يوصف بجميع الصفات.. وهو اسم لم يسم به غيره تبارك وتعالى، ولهذا لا يعرف في كلام العرب له اشتقاق من «فعل يفعل» فذهب من ذهب في النحاة إلى أنه اسم جامد لا اشتقاق له، ثم يذكر أقوال الخليل وسيبويه على أن الألف واللام فيه لازمة، وقيل: إنه مشتق مستدلاً بقول رؤبة بن العجاج حيث صرح الشاعر بلفظ المصدر وهو التأله، ويؤيد هذا الاتجاه بقول ابن عباس ومجاهد وغيره، وما نقله سيبويه عن الخليل بن أحمد الفراهيدي، وما نقله القرطبي عن جماعة من العلماء منهم الشافعي والخطابي وإمام الحرمين الجويني والغزالي وغيرهم، بأن اللفظ جامد لا اشتقاق له.

ثم يذكر ما قال به بعضهم من كونه مشتقاً واستدلالهم بقوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱللَّهُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِي ٱلْأَرْضِ﴾ [الأنعام: ٦/ ٣] واختار سيبويه نقلاً عن

(١) المرجع السابق: ١٦ - ٢١.
(٢) المرجع ذاته: ص ١٩.

الخليل أن أصله «ألاه» مثال «فعَّال» فأدخلت الألف واللام بدلاً من الهمزة، قال سيبويه: مثل «الناس» أصله «أناس». وقيل: أصله «الإله» حذفوا الهمزة، وأدغموا اللام الأولى في الثانية، كما قال تعالى: ﴿لَّٰكِنَّا۠ هُوَ ٱللَّهُ رَبِّى﴾ [الكهف: ١٨/٣٨] أي «لكنَّ أنا» وقد قرأها كذلك الحسن.

قال القرطبي: ثم قيل: هو مشتق من «وله» إذا تحيَّر، الوله: ذهاب العقل، يقال: رجل واله، وامرأة وَلْهى ومولوهة، إذا أرسل في الصحراء، فالله تعالى يحيِّر أولئك، ليتفكروا في حقائق صفاته، فعلى هذا يكون ولاه، فأبدلت الواو همزة، كما قالوا في: «وشاح» «إشاح» و«وسادة» «إسادة».

وقال الفخر الرازي: وقيل: إنه مشتق من «ألهت إلى فلان» أي سكنت إليه، فالعقول لا تسكن إلا إلى ذكره، والأرواح لا تفرح إلا بمعرفته، لأنه الكامل على الإطلاق دون غيره.

وقيل: اشتقاقه من أَلِه الفصيل أولع بأمه، والمعنى أن العباد مألوهون مولعون بالتضرع إليه في كل الأحوال. وقيل: مشتق من أله الرجل يأله، إذا فرغ من أمر نزل به، فألهه، أي أجاره، فالمجير لجميع الخلائق من كل المضار هو الله سبحانه.

وقد اختار الرازي أنه اسم غير مشتق البتة، قال: وهو قول الخليل وسيبويه وأكثر الأصوليين والفقهاء، ثم استدل على ذلك بوجوه... إلى آخر هذا البيان.

وهذا في الواقع من ابن كثير يدل على تمكنه في اللغة وعنايته بها، وأن هذا الكلام يعد «بحثاً» لغوياً نفسياً وممتعاً وأساساً لبحث طويل.

وكذلك فعل ابن كثير في بيان كلمتي «الرحمن الرحيم» فقال: هما اسمان مشتقان من الرحمة على وجه المبالغة، «ورحمن» أشد مبالغة

من «رحيم» وفي كلام ابن جرير الطبري ما يفهم منه حكاية الاتفاق على هذا، وفي تفسير بعض السلف ما يدل على ذلك.

وكل هذا يدل مع كثرة بيان الشواهد اللغوية والشعرية على تعمق ابن كثير في اللغة العربية، وهو ضروري للمفسر، لأن القرآن الكريم نزل بلغة العرب وبلسان العرب فيعتمد التفسير على فهم اللغة العربية في ألفاظها ودلالاتها وحقيقتها ومجازها وبلاغتها وفصاحتها.

ومن أصول منهج ابن كثير في تفسيره التزام التفسير بالمأثور، فيقول[١]: إذا لم تجد التفسير في القرآن ولا في السنة ولا وجدته عن الصحابة، فقد رجع كثير من الأئمة في ذلك إلى أقوال التابعين كمجاهد بن جَبْر، فإنه كان آية في التفسير، كما قال محمد بن إسحاق. وهو منهج ابن عباس. فأما تفسير القرآن بمجرد الرأي فحرام.. ونقل نقولاً في هذا عن أبي بكر الصديق وعمر بن الخطاب وغيرهما من الصحابة. وهو طريقة فقهاء المدينة السبعة، قال عبيد الله بن عمر: لقد أدركت فقهاء المدينة وإنهم ليعظمون القول في التفسير.

ويعلِّق ابن كثير على هذا قائلاً: فهذه الآثار الصحيحة وما شاكلها عن أئمة السلف محمولة على تحرجهم عن الكلام في التفسير بما لا علم لهم به. فأما من تكلم بما يعلم من ذلك لغة وشرعاً فلا حرج فيه.

ومن أصول منهج ابن كثير أنه يفسر القرآن بالقرآن، حيث قال: إن أصح الطرق من طرق التفسير أن يفسر القرآن بالقرآن، فما أُجمِل في مكان، فإنه قد بُسط في موضع آخر، فإن أعياك ذلك فعليك بالسنة، فإنها شارحة للقرآن وموضحة له. والغرض أنك تطلب تفسير القرآن منه، فإن لم تجده فمن السنة[٢].

---

(١) المرجع ذاته: ص ٤ - ٦.

(٢) المرجع نفسه: ص ٣ - ٤.

وحينئذ إذا لم نجد التفسير في القرآن ولا في السنة، رجعنا في ذلك إلى أقوال الصحابة، فإنهم أدرى بذلك لما شاهدوا من القرائن والأحوال التي اختصوا بها، ولما لهم من الفهم التام والعلم الصحيح والعمل الصالح، ولا سيما علماءهم وكبراءهم كالأئمة الأربعة الخلفاء الراشدين، والأئمة المهتدين، وعبد الله بن مسعود ﷺ ومنهم الحبر البحر عبد الله بن عباس ابن عم رسول الله ﷺ وترجمان القرآن ببركة دعاء رسول الله ﷺ حيث قال: «اللهم فقِّهه في الدين وعلِّمه التأويل».

وإذا لم نجد التفسير في القرآن ولا في السنة ولا وجدته عن الصحابة، فقد رجع كثير من الأئمة في ذلك إلى أقوال التابعين كمجاهد بن جبر، فإنه كان آية في التفسير، كما تقدم إيراده.

ومن منهج ابن كثير رحمه الله تأييد تفسيره بما ثبت من الأحاديث الصحيحة[1]، ففي بيان وجوب قراءة المصلي مطلقاً (منفرداً أو مقتدياً) الفاتحة وبيان فضيلتها، استدل بما أخرجه مسلم في صحيحه عن أبي هريرة ﷺ، عن النبي ﷺ قال: «من صلى صلاة لم يقرأ فيها بأم القرآن، فهي خِداج[2] ثلاثاً، غير تمام» فقيل لأبي هريرة: إنا نكون خلف الإمام، فقال: اقرأ بها في نفسك فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «قال الله عز وجل: «قسمتُ الصلاة بيني وبين عبدي نصفين، ولعبدي ما سأل، فإذا قال: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، قال الله: حمدني عبدي، وإذا قال: ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾، قال الله: أثنى علي عبدي، فإذا قال: ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾، قال الله: مجَّدني عبدي، وقال مرة: فوَّض إلي عبدي، فإذا قال: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾، قال: هذا بيني وبين عبدي، ولعبدي ما سأل، فإذا قال: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ * صِرَٰطَ

(١) المرجع نفسه: ص ١١.
(٢) أي ناقصة.

﴿ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ قال الله: هذا لعبدي ولعبدي ما سأل».

قال الشيخ محمد عبد الرزاق حمزة في بيان مؤلفات ابن كثير: ومن مؤلفاته تفسير القرآن الكريم، وهو من أفيد كتب التفسير بالرواية، يفسر القرآن بالقرآن ثم بالأحاديث المشهورة في دواوين المحدثين بأسانيدها، ويتكلم عن أسانيدها جرحاً وتعديلاً.. ثم يذكر آثار الصحابة والتابعين، قال السيوطي: لم يؤلف على نمط مثله[١].

ومن مزايا ابن كثير الحافظ الثقة للأحاديث استبعاد الروايات المنقولة عن بعض المسلمين الذين تأثّروا بالثقافة الإسرائيلية، مثل كعب الأحبار ووهب بن منبه، وهي المعروفة بالإسرائيليات، فيقول ابن كثير في شأنها[٢]: ولكن هذه الأحاديث الإسرائيلية تذكر للاستشهاد لا للاعتضاد فإنها على ثلاثة:

أحدها: ما عملنا صحته مما بأيدينا مما يشهد له بالصدق، فذلك صحيح.

والثاني: ما علمنا كذبه مما عندنا مما يخالفه.

والثالث: ما هو مسكوت عنه، لا من هذا القبيل ولا من هذا القبيل، فلا نؤمن به ولا نكذبه، ويجوز حكايته لما تقدم، وغالب ذلك مما لا فائدة فيه تعود إلى أمر ديني، ولهذا يختلف علماء أهل الكتاب في هذا كثيراً، ويأتي عن المفسرين خلاف بسبب ذلك، كما يذكرون في مثل هذا أسماء أصحاب الكهف، ولون كلبهم وعددهم، وعصا موسى من أي الشجر كانت، وأسماء الطيور التي أحياها الله لإبراهيم، وتعيين البعض الذي

(١) الباعث الحثيث: ص ١٦.
(٢) المرجع السابق: ص ٤.

ضرب به القتيل من البقرة، ونوع الشجرة التي كلَّم الله منها موسى، إلى غير ذلك مما أبهمه الله تعالى في القرآن، مما لا فائدة في تعيينه تعود على المكلفين في دينهم ودنياهم، ولكن نقل الخلاف عنهم في ذلك جائز.

هذا التقسيم يدل على مدى تثبُّت ابن كثير في الرواية، وعلى عقليته النافذة والراجحة، وعلى إنصافه واعتداله، مقدراً ما يجب على العالم في التزام التوثيق صيانة للفكر واحتراماً لأصول العلم، من غير تعصب ولا حقد ولا تطاول على الآخرين.

ومن منهج ابن كثير في التفسير تضمينه كتابه أقوال الفقهاء في المسائل الفقهية، وأدلتهم، ومناقشتهم، ولكن من غير تطويل ولا استطراد خلافاً لمدرسة كوكبة من أعلام المفسرين، مثل ابن العربي في كتابه «أحكام القرآن» والجصاص والرازي في «أحكام القرآن» والقرطبي في كتابه الشهير: «الجامع لأحكام القرآن» فهي كتب متخصصة في أحكام الفقه المقارن في مسائل مختلفة ومشكلات عديدة.

ابن كثير الفقيه

وأما ابن كثير الفقيه الشافعي فقد صنف عدة كتب في الفقه، وكان يمارس الفتوى[1]، ويؤخذ رأيه في القضاء، وقد حفظ في صغره كتاب التنبيه، وتبين إسهامه الواضح في توافر النبوغ الفقهي والملكة الفقهية من أجل الترجيح بين الآراء الفقهية بحسب الدليل الأقوم، وهذا يجعله في مرتبة «مجتهد الترجيح».

من كتبه في الفقه

«الاجتهاد في طلب الجهاد» رسالة مخطوطة، و«أحكام التنبيه».

---

(١) التفسير والمفسرون للشيخ الدكتور محمد الذهبي: ١/ ٢٤٦.

وكان في نقله الآراء المذهبية صريحاً وأميناً في نسبة الآراء لأصحابها، كما تميز بالأمانة وتوثيق النقول عن المفسرين السابقين كابن جرير الطبري والقرطبي، وابن عطية، وابن تيمية رحمهم الله[١]. وله كتاب «طبقات الشافعية» ومعه مناقب الشافعي.

والحاصل: إن تفسير ابن كثير ذو أهمية كبيرة بين التفاسير، بل هو من خير كتب التفسير، فشاع اقتناؤه عند جميع العلماء وطلاب العلم، وتداولته معظم الأوساط العلمية والشعبية والدينية[٢].

قال السيوطي: «له التفسير الذي لم يؤلف على نمطه مثله»[٣].

وهذا ما جعل العلماء يصفون ابن كثير بأنه «المفسر الفقيه الحافظ».

ابن كثير الحافظ

الحافظ هو من اجتمعت فيه صفات المحدث، مع كثرة الحفظ وجمع الطرق، ورأى بعض المتأخرين أن الحافظ من وعى مئة ألف حديث متناً وإسناداً، ولو بطرق متعددة، وعرف من الحديث ما صح، وعرف اصطلاح هذا العلم[٤].

وكان لابن كثير إسهام في علوم الحديث سنداً ومتناً، ومن أشهر كتبه التي اعتُمدت في المعاهد الدينية وفي التدريس الجامعي في مختلف الجامعات الإسلامية والعربية اختصار كتاب مقدمة ابن الصلاح: «علوم الحديث» والذي طبع بعنوان: «الباعث الحثيث شرح اختصار علوم

---

(١) المرجع السابق: ١/ ٢٤٥.

(٢) كشف الظنون: ١/ ٣٠٥.

(٣) ذيل طبقات الحفاظ للسيوطي: ص ٣٦١.

(٤) أصول الحديث: أ. د. محمد عجاج الخطيب: ص ٤٤٦، ط دار الفكر الحديث - لبنان.

الحديث»[١]. وعلم مصطلح الحديث وعلم أصول الفقه مما انفرد به المسلمون للتوثيق والتأصيل.

وقد اشتمل هذا الكتاب على خمسة وستين نوعاً من أنواع الحديث هي: الصحيح، والحسن، والضعيف، والمسند، والمتصل، والمرفوع، والموقوف، والمقطوع، والمرسل، والمنقطع، والمعضل، والمدلّس، والشاذ، والمنكر والاعتبار، والمتابعات والشواهد، الأفراد، زيادة الثقة، المعلَّل، المضطرب، المُدْرَج، الموضوع، المقلوب، من تقبل روايته ومن لا تقبل، كيفية سماع الحديث وتحمله وضبطه، كتابة الحديث، صفة رواية الحديث، آداب المحدِّث، آداب طالب الحديث، الإسناد العالي والنازل، المشهور، الغريب والعزيز، المسلسل، ناسخ الحديث ومنسوخه، التصحيف والتحريف، مختلف الحديث، المزيد في متصل الأسانيد، الخفي من المراسيل، الصحابة، التابعون، رواية الأكابر عن الأصاغر، المدبَّج، الإخوة والأخوات، رواية الآباء عن الأبناء، السابق واللاحق، من لم يَرْو عنه إلا راوٍ واحد، من له أسماء متعددة، الأسماء والكنى، الأسماء المفردة والكنى، من اشتهر بالاسم دون الكنية، الألقاب، المؤتلف والمختلف في الأسماء ونحوها، المتفق والمفترق من الأسماء ونحوها، نوع يتركب من النوعين قبله، صنف آخر مما تقدم، المنسوبون إلى غير آبائهم، النسب التي على خلاف ظاهرها، المبهمات من الأسماء، وَفَيات الرواة وأعمارهم، الثقات والضعفاء، من اختلط آخر عمره، الطبقات، الموالي من الرواة والعلماء، أوطان الرواة وبلدانهم.

يلاحظ أن بعض هذه الأنواع ليست أنواعاً للحديث بالمعنى الضيق

(١) تحقيق وتعليق أحمد محمد شاكر، الطبعة الثالثة، مطبعة محمد علي صبيح بميدان الأزهر.

المستقل، وإنما هي أوصاف للرواة، قد تؤثر في رواية الحديث وقد لا تؤثر، وهذا التنويع هو للعلامة أبي عمرو بن الصلاح وترتيبه، قال: وليس بآخر الممكن من ذلك، فإنه قابل للتنويع إلى ما لا يحصى، إذ لا تنحصر أحوال الرواة وصفاتهم، وأحوال متون الحديث وصفاتهم.

والواقع أن ابن كثير لم يقتصر على اختصار كتاب «علوم الحديث» لابن الصلاح، وإنما كان لشخصيته وضوح بارز الإضافة أو التقييد أو المقارنة بين رأي ابن الصلاح وآراء غيره من العلماء، أو الترجيح والاختيار، أو التعليق والاستدراك، مما يدل على أن المسألة ليست اختصاراً، وإنما فيه عمل إنشائي جديد، يعبر عنه ابن كثير بعبارة: «قلت» ولا يكاد يخلو نوع من كلمة: «قلت».

مثال ذلك: فحاصل حد الحديث الصحيح أنه المتصل سنده، بنقل العدل الضابط عن مثله، حتى ينتهي إلى رسول الله ﷺ، أو إلى منتهاه، من صحابي أو من دونه، ولا يكون شاذاً، ولا مردوداً، ولا معللاً بعلّة قادحة، وقد يكون مشهوراً أو غريباً[1].

وأورد الشيخ أحمد شاكر حينئذ أصح الأسانيد عن مجموعة من رواة الحديث من الصحابة رضي الله عنهم كأبي بكر وعمر وعلي وعائشة وسعد بن أبي وقاص، وابن مسعود، وابن عمر، وأبي هريرة، وأم سلمة، وعبد الله بن عمرو بن العاص، وأبي موسى الأشعري، وأنس بن مالك، وابن عباس، وجابر بن عبد الله، وعقبة بن عامر، وبُرَيدة.. إلخ[2] مما جعل تعليقات الشيخ شاكر ذات قيمة علمية ملموسة، أغنت الكتاب وروَّجته في العصر الحاضر.

---

(١) الباعث الحثيث: ص ٢٢.

(٢) المرجع السابق: ص ٢٣ - ٢٤.

قال الحافظ ابن حجر: «وقد اختصر (أي ابن كثير) مع ذلك كتاب ابن الصلاح، وله فيه فوائد»[١].

وقال الشيخ محمد عبد الرزاق حمزة مقدِّم الكتاب ومترجم المؤلف ابن كثير: اختصر ابن كثير مقدمة ابن الصلاح رسالة لطيفة سماها «الباعث الحثيث على معرفة علوم الحديث» بعبارة سهلة فصيحة، وجمل مفهومة مليحة، واستدراك على ابن الصلاح استدراكات مفيدة، يبدؤها بقوله: قلت، فسهل على طالب الفن تناوله في رسالة وسط - وخير الأمور أوساطها - لم يختصرها اختصاراً مضغوطاً مختلًّا، ولا أطالها تطويلاً منتشراً مشوشاً، فكانت خطوة أولى ومرحلة ابتدائية، يدرسها الطالب، فيرتقي منها إلى دراسة أصلها وما بعده من كتب الأئمة، حتى ينتهي إلى التحقيق فيُدلي بدلوه مع الدِّلاء[٢].

والحاصل: أن كتاب «الباعث الحثيث» وغيره من الكتب المطبوعة وهي جامع المسانيد، ومسند عمر بن الخطاب، دليل واضح على عناية ابن كثير بالحديث، وأنه عالم متقن وحافظ للحديث، استحق أن يمتدحه العلماء، مثل الشيخ أحمد شاكر بقوله: «إمام عظيم، من الأئمة الثقات المتحققين بهذا الفن»[٣] أي فن الحديث.

ومن كتبه المتميزة: «التكميل في معرفة الثقات والضعفاء والمجاهيل» خمس مجلدات في رجال الحديث.

ابن كثير المؤرخ

ابن كثير كما تقدم هو كالطبري مفسراً ومؤرخاً، فله ثمانية كتب في

---

(١) الدرر الكامنة: ١/ ٤٠٠.
(٢) الباعث الحثيث: ص ١٣.
(٣) المرجع السابق: ص ٦.

التاريخ والسيرة هي بداية الخلق، والبداية والنهاية الذي سأخصص الكلام عنه، ومعجزات النبي ﷺ وهو مأخوذ من البداية والنهاية، وعلامات يوم القيامة، وقصص الأنبياء وهو أجزاء من البداية والنهاية، والكواكب الدراري المنتخب من كتاب البداية والنهاية، والمسيح عيسى ابن مريم وهو أحد فصول البداية والنهاية، مما يدل على أن كتاب البداية والنهاية هو الأصل العام لديه، ويعد بحق موسوعة تاريخية.

وقد طبع كتاب «البداية والنهاية» في أربعة عشر مجلداً في مكتبة المعارف - بيروت، ومكتبة النصر - الرياض، الطبعة الأولى ١٩٦٦م عن نسخة مخطوطة في المدرسة الأحمدية بحلب، وفيه يؤرخ للدول الإسلامية حتى زمانه، وينقسم إلى ثلاثة أقسام:

الأول: بدء الخليقة وتواريخ الأمم الغابرة، ونشأة الرسول ﷺ، ثم الوحي وظهور الإسلام حتى الهجرة إلى المدينة المنورة.

الثاني: العهد الراشدي، ثم الأموي، ثم العباسي وما تفرع عنها من ممالك حتى قضى عليها المغول بسقوط بغداد سنة ٦٥٦هـ وما بعد ذلك (وهي العهد الفاطمي، والأيوبي، والمملوكي) حتى وفاة ابن كثير سنة ٧٧٤هـ.

والثالث: الحديث عن الآخرة ومظاهر قيام الساعة وعلاماتها، والوعظ الديني في المجلد الأخير فقط.

والكتاب مرتَّب حسب السنين، وما يحدث في كل سنة من أحداث تاريخية وتراجم للخلفاء والأمراء والعلماء المشاهير حتى سنة ٧٦٧هـ وبعدئذ أخبار نهاية الأمم وهو المراد بالنهاية.

ويتضمن القسم الأول كما ذكرت الجامع لأخبار الأنبياء المتقدمين في الجزء الأول (ص ٣٨) والجزء الثاني (ص ١٩٠) حيث يبدأ الكلام

عن الجاهلية بعنوان «باب جهل العرب» (ص ٢٥١) وبدء الكلام عن السيرة النبوية (ص ٢٥٢) ثم الجزء الثالث والرابع والخامس، وإلى نهاية السنة العاشرة من الجزء السادس (ص ٣٠٠).

والعهد الراشدي والخلفاء الراشدين من (ج ٦/ ٣٠١) حيث بدأت خلافة أبي بكر الصديق يوم الاثنين الثاني عشر إلى السنة الثالثة عشرة حيث وقعت وقعة اليرموك قبل فتح دمشق أو السنة الخامسة عشرة بعد فتح دمشق بحسب اختلاف المؤرخين، في بدايات الجزء السابع حيث وفاة الصديق في (٢٢) من جمادى الآخرة سنة ثلاث عشرة بعد مرض خمسة عشر يوماً، فكانت خلافته سنتين وثلاثة أشهر.

ثم بدأت خلافة عمر بن الخطاب يوم وفاة أبي بكر سنة (١١هـ) واستمر إلى سنة (٢٣هـ) حيث بويع عثمان بن عفان بالخلافة، وبقي فيها إلى سنة (٣٥هـ) حيث قتل فيها، فبويع علي بن أبي طالب في تلك السنة، ودامت خلافته إلى سنة (٤٠هـ) حيث قتل على يد عبد الرحمن بن ملحم الخارجي في مؤامرة (١٧) رمضان المشهورة، وذلك في الجزء السابع و(١٦ صفحة) من الجزء الثامن، وكانت خلافة النبوة ثلاثين سنة.

ثم بدأ عهد الدولة الأموية من الجزء الثامن إلى نهاية الجزء التاسع و(٣٨ صفحة) من الجزء العاشر، بخلافة معاوية بن أبي سفيان سنة (٤١هـ) بعد تنازل الحسن بن علي له في عام الجماعة، وبقيت إلى عام (١٣٢هـ).

وبعد ذلك بدأت خلافة العباسيين بخلافة أبي العباس السفاح (سنة ١٣٢) في بقية الجزء التاسع والجزء العاشر والجزأين الحادي عشر والثاني عشر إلى (ص ٢٠٦) من الجزء الثالث عشر حيث قتل التتار الخليفة المستعصم بالله سنة (٦٥٦هـ) وفيها العهد الفاطمي، والأيوبي، والمملوكي.

واستمرت دولة الفاطميين قريباً من ثلاث مئة سنة حتى كان آخرهم العاضد الذي مات بعد الستين وخمس مئة، وكانت عدة ملوك الفاطميين أربعة عشر ملكاً مستخلفاً ومدة ملكهم من سنة (٢٩٧) إلى سنة بضع وستين وخمس مئة (٥٦٧).

وفي سنة (٦٥٦هـ) أخذت التتار بغداد وقتلوا أكثر أهلها حتى الخليفة، وانقضت دولة بني العباس منها على يد هولاكوخان الملك الجبار الفاجر الكَفار، وكان معه نحو مئتي ألف مقاتل في ثاني عشر المحرم من هذه السنة[1].

وفي سنة (٦٥٨هـ) حيث وقعت معركة (عين جالوت) وانتصر المسلمون فيها بقيادة الملك المظفر سيف الدين قُطُز بن عبد الله سلطان ديار مصر، في العشر الأخير من رمضان من هذه السنة، ثم قتل بعد سنة في أواخر ذي القعدة، وتولى السلطة قاتله ركن الدين الملك الظاهر بيبرس البنداقدري، ولقَّبوه «الملك الظاهر» ثم تبعه ملوك آخرون، وذلك في الجزء الثالث عشر والجزء الرابع عشر، وكان سرد أواخر الأحداث سنة (٧٦٧هـ) حيث استولى الإفرنج على الإسكندرية، وختم هذا الجزء ببيان مقتل يلبغا الكبير بدمشق في ليلة الاثنين السابع عشر من ربيع الآخر مع أسيرين جاءا على البريد من الديار المصرية سنة (٧٦٧هـ) وهو آخر ما سرد ابن كثير من التاريخ.

وذلك كله على أساس سرد الوقائع والأحداث بحسب السنين، مع النقد والتحليل والتعليق والاستطراد لبعض مسائل الفقه، والتفوق في تبيان أحداث السيرة النبوية، وتاريخ الخلفاء.

والقسم الأخير من البداية والنهاية عن أحداث وعلامات يوم القيامة

(١) البداية والنهاية: ١٣/ ٢٠٠، ٢٤٨.

مذكور في طبعة أخرى من (١٦ جزءاً) في مطبعة السعادة بالقاهرة ١٩٣٢م.

يتبين من هذا أن كتاب البداية والنهاية أكسب ابن كثير شهرة في التاريخ كشهرته في التفسير، لامتيازه بالدقة والشمول، وترجمة أكابر العلماء من القضاة والمفسرين والمحدثين والفقهاء والمتكلمين والأصوليين والصوفية والشعراء وغيرهم من الوزراء والخلفاء والمصلحين، مثل الحافظ المنذري، وعز الدين بن عبد السلام، وتقي الدين بن تيمية، وابن عربي، وابن الجوزي، علماً بأن ابن كثير شاعر كما يتضح من كتابه البداية والنهاية (١٣/ ٢٠٩) وترجم للسفّاح هولاكو في (١٣/ ٢٤٨) وذكر في (١٣/ ٢٠٢) أنه قتل ثمان مئة ألف من أهل بغداد، وقيل: ألف ألف وثمان مئة ألف، وقضى هولاكو على حضارة بغداد وأوقع نكبة شديدة فيها، وألقى كتب المكتبات في نهر دجلة والفرات، في مدة أربعين يوماً بقيت بعدها بغداد خاوية على عروشها ليس بها أحد إلا الشاذ من الناس، والقتلى في الطرقات كأنها التلال، وقد سقط عليهم المطر فتغيرت صورهم، وأنتنت من جيفهم البلد، وتغير الهواء، فحصل بسببه الوباء الشديد حتى تعدى وسرى في الهواء إلى بلاد الشام، فمات خلق كثير من تغير الجو وفساد الريح، فاجتمع على الناس الغلاء والوباء والفناء، والطعن والطاعون، فإنا لله وإنا إليه راجعون[1].

والتاريخ للفجرة والظالمين واللصوص والقتلة يعيد نفسه منذ آذار عام ٢٠٠٣ - ٢٠٠٨م لخمس سنوات على فظائع وجرائم الأمريكان والصهاينة، رحم الله ابن كثير وطيَّب ثراه على ما قدم للأمة من ثروة علمية في التفسير والحديث والفقه والأصول والتاريخ والشعر.

---

(١) البداية والنهاية: ١٣/ ٢٠٣.

أهم المراجع

- ابن كثير الدمشقي، أ. د. محمد الزحيلي، ط دار القلم، دمشق، ١٤١٥هـ/ ١٩٩٥م.
- أصول الحديث، أ. د. محمد عجاج الخطيب، ط دار الفكر الحديث - لبنان.
- الأعلام، خير الدين الزركلي، الطبعة الثانية، الجزء الأول.
- الباعث الحثيث شرح اختصار علوم الحديث لابن كثير، تحقيق أحمد شاكر، مطبعة صبيح بالقاهرة.
- البداية والنهاية لابن كثير، ط دار المعارف - بيروت، مكتبة النصر - الرياض.
- تذكرة الحفاظ - شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد الذهبي، ط الهند ١٣٣٣هـ.
- تفسير القرآن العظيم لابن كثير، ط عيسى البابي الحلبي، مصر.
- التفسير والمفسرون، الدكتور الشيخ محمد الذهبي، مصر.
- الدرر الكامنة لابن حجر العسقلاني، ط القاهرة.
- ذيل تذكرة الحفاظ، للحافظ أبي المحاسن الحسيني، القاهرة.
- ذيل طبقات الحفاظ، جلال الدين السيوطي، القاهرة.
- شذرات الذهب، ابن العماد الحنبلي، ط القدسي، القاهرة، ١٣٥٠.
- طبقات الحفاظ للذهبي، القاهرة.
- طبقات الشافعية الكبرى، تاج الدين السبكي، الطبعة الأولى، المطبعة الحسينية المصرية.
- المنهل الصافي والمستوفى بعد الوافي، يوسف بن تغري بردي الأتابكي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٤م.